الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

على ميعاد — فى بناء الجيل الجديد — ظرف المكان
ضيوف القاهرة — شارع الشريف وغيط الشريف

على ميعاد

مع مَن ؟ مع الربيع بعد أن كاد يخلف الميعاد

فى صباح كل يوم من هذه الأيام أطالع وجوه الأشجار الضواحك ، عسانى أنسى عبوسها فى الشتاء الذى طال ثم طال ، إلى حد الإملال . ومن العجب أن أرى أشجاراً لم تورق بعد ، كأنها تخشى أن يكون انصرام الشتاء خبراً لم يقم على صحته دليل . فلتقرأ هذه الأشجار هذا الكلام ، ولتصدّق أننا فى « مايو » شهر الأزهار والرياحين

لا شتاء بعد اليوم من هذا العام ، فلنفرح بقدوم الربيع الأول وهو مطلع الصيف ، إلى أن يجىء الربيع الثانى ، الربيع الحقيقى فى الديار المصرية ، وهو الذى يقع فى الأشهر الثلاثة : أغسطس وسبتمبر واكتوبر ، وهى أشهر الصفاء والرخاء فى هذه البلاد

مرحباً بالصيف ، والصيف المصرى جدير بالترحيب . فبفضله نتذوق نسمات فى المساء لا تجود بمثلها الطبيعة فى أى أرض . والقيظ فى مصر يُتّقَى بالظل ؛ وفى غير مصر لا يُتّقَى القيظ إلا بوسائل يغلب عليها الافتعال

وطعم الظل فى مصر لعهد الصيف جميل المذاق إلى أبعد الحدود . ولا أدري كيف تركناه بلا تنويه فيما كتبنا عن خصائص الطبيعة المصرية

ولا بد من النص على حقيقتين من حقائق الحياة فى مصر قبل أن أنسى وينسى الناس :

الحقيقة الأولى هى جمال الشتاء المصري قبل التمدن الحديث ، ولا يعرف قيمة هذا الجمال إلا من نشأ فى الريف ، فقد كان هنالك طعمٌ لذيذ للدفء فى « القاعة المحمية » ، وكان لتلك القاعات فضلٌ فى خلق شعور السعادة بالتغلب على قسوة الشتاء

الحقيقة الثانية هى جمال الزِّير المعلَّق فى أيام الصيف ، وهو يمنح الماء طعماً لا يمنحه الثلج بأى حال

وبالقرب من دار الرسالة حارة تسمى حارة الزير المعلق ، فمن كان يجهل أصل هذه فليعرف أن « الزير المعلق » هو قصر شيرين باشا . ولعل صاحب القصر سماه بهذا الإسم للمعنى المضمر فى لطافة الزير المعلق أيام الصيف . وقد سُجِّل اسم هذا القصر فى قصيدة من قصائد الشاعر إبراهيم الدباغ ، أنعم الله عليه بالشفاء ، فقد سمعت أنه مريض

أما بعد فماذا أريد أن أقول ؟

هذا ربيع ، وهذا صيف ، وهذه ليالى النسائم الرفيقة بمصر الجديدة والجيزة والمعادى وحلوان والزيتون

فأين صبواتك يا قلبي ؟ وأين أيامك ؟ وأين لياليك ؟ وأين أحبابٌ كنت معهم على ميعاد ؟

لقد بخلت الأقدار بالتلاقى ، وتركتنا نصطرع فى لجج اليأس العجّاج

مضى الشتاء وأورقت أشجارٌ ثم أزهرت ، وما لك يا قلبى أملٌ فى إزهار ولا إيراق

الوجود كله ربيع ، فأين نصيبك من هذا الربيع يا قلبي ؟

ربيعك هنالك ، فامض إليه إن استطعت ، وإن استطاعت تلك الأزهار أن تطمس أبصار الرقباء

سيمر زمن وأزمان ، وستفعل المقادير ما تفعل بمصاير ممالك وشعوب ، ثم يبقى لك هواك يا قلبى ، هواك الذى لا يجوز عليه الخمود ، لأنه من أقباس الخلود

وهل يعرف أحبابك هنالك أنك معهم على ميعاد ؟

لقد يئسوا من وفائك يا قلبي ، لأنك آثرت الكتمان ، فمتى تفتضح فى هواهم ليعودوا مع الربيع ؟

أنتِ على بالى فى كل وقت ، يا مَهاةً لا تخطر إلا فى البال

ولو أننى أستغفر الله كلما ذكرتك لم تُكتب عليّ ذنوبٌ

فى بناء الجيل الجديد

أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل فى تقسيم الحظوظ ، بحيث يصير من المفهوم عند الجميع أن فى مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب ، إذا زوّد نفسه بالزاد الذى يؤهله لما يتسامى إليه ، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع

ولكى نصل إلى هذه الغاية يجب أن نروض أنفسنا على فهم المراد من العدل ، فقد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معارك الحياة واقتحام أسوار المجد . وهذه آفة لم يسلم منها الناس فى أى زمان

نحن فى الغالب نطالب بأكثر مما نستحق ، وندّعى لأنفسنا حقوقاً لم نبذل فى سبيلها ما يجب بذله من الجهود ، ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل . وهل عدلنا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل ؟

لا يجوز تضييع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية ، ولا يجوز تضييع لحظة واحدة فى القيل والقال إذا كنا نريد أن يكون لنا فى الحياة السامية مكان

ومن آفات الناس فى هذا العصر أن تكون المظاهر غاية ما يطلبون ، فمن النادر أن تجد من يتشهى أن يكون نعيمه مقصوراً على المقاسم الروحية ، ومن النادر أن تجد من يفرح لأن جيرانه فى رغد وإن كان فى حرمان

والاعتماد على الحكومة فى جميع الشؤون أخطر آفات هذا الجيل ؛ فالحكومة هى التى تصدّ بغى الناس بعضهم على بعض ، والحكومة هى التى تضمن وجود الرغيف فى السوق ، والحكومة هى المسئولة عن كف يد القريب عن ظلم القريب

نحن نشغل بسَدّ المنافع عن عدّ المآثم ، وننسى محاسبة أنفسنا على الكسل البغيض ، الكسل الذى يشلّ مواهبنا المكنونة ويضيفنا إلى جماعة المتواكلين

ما هذا الذى نعانى من مكوارث وخطوب ؟

أقول هذا لأنى أعرف أننا لا نلتفت لغير المصاعب التى تساق إلينا من بُعد ، ونغفل عن المصاعب التى نخلقها بأيدينا ، وهى المصاعب الناشئة عن غفوتنا الروحية والذوقية والعقلية . وصدق الرسول حين قال : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك »

الجهل الذميم بقوانين الوجود هو الذى يجعلنا نُلقى المسئولية على من لا يحملون عنا أية مسئولية ، والفرار من التبعات هو أعظم شواهد الخذلان

لو أنفقنا فى محاسبة أنفسنا معشار ما ننفق فى محاسبة الحكومة والمجتمع لوصلنا فى جهاد النفس إلى أشياء . ولو تجنّينا على أنفسنا كما نتجنى على الحكومات والمجتمعات لتكشفت أنفسنا عن حقائق تهدينا فى ظلمات الوجود

محاسبة النفس لا تقع إلا عند يقظة النفس ، فلنفهم أن رضانا عن أنفسنا فى جميع الأحوال من دلائل السبات

وأغرب ما نتورط فيه أننا نبالغ فى تعقب عيوب الحكومات والمجتمعات ، ثم ننتظر أن لا ترى فينا الحكومات والمجتمعات غير الجميل

وما هى الحكومة ؟

هى مجموعة أشخاص يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس فى المعاملات الفردية والاجتماعية ، ومن حقهم أن يعاملوك بالعدل فى الإساءة كما تحب أن يعاملوك بالعدل فى الإحسان

وما هو المجتمع ؟

هو تلك الخلائق المبثوثة فى القرى والمدن والأسواق ، وهى على تنوعها العجيب قد تلتقى فى المشاعر والعواطف من حين إلى حين

وقد نخطئ فنتوهم أن تلك الخلائق تعجز عن تعقب العيوب فيمن لا يرى فيها غير العيوب

والمصلح فى الجيل الجديد سيُسأل أمام ضميره عن تجسيم المحاسن الأصيلة فى المجتمع ، وهى سر التماسك الاجتماعى ، وبفضلها استطاع المجتمع المصرى أن يقهر مصاعب كثيرة عانتها مصر من جيل إلى جيل

وخلاصة القول أنى أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع ، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه حجر الأساس فى بناء الحكومة وبناء المجتمع ، إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق

ظرف العقاد

في يوم واحد ظهر لي مقال في مجلة الرسـالة ومقال في مجلة الإثنين رداً على الأستاذ عباس محمود العقاد ؛ ومع أن المعاني واحدة أو كالواحدة في المقالين فقد اختلف الأداء كل الاختلاف ، فما السر في ذلك ؟

يرجع السرّ إلى ظرف المكان ، فقد بدا لي العقاد في « الإثنين » وهو خصم ، وبدا لي في « الرسالة » وهو زميل ، وما أبعد الفرق بين الخصم والزميل !

قال قائلٌ إن اللطف الذي بدا في مقال الرسالة بدّد العنف الذي ظهر في مقال الإثنين . وأقول إني لا أندم على كلمة الخير بأي حال . وليس في نيتي أن أصطنع العنف في معاملة زملائي ، إلا أن يحرجوني . والرجل الغضبان يستبيح ما لا يباح

وأنا مع ذلك أشعر بفداحة الخسارة في العراك الذي ثار بيني وبين الأستاذ العقاد ؛ فلا هو وصل إلى شيء ، ولا أنا وصلت إلى شيء ، لأن ذلك العراك لم يزد عن ملاحاة لا أرضاها منه ولا يرضاها مني

خصومتي مع الدكتور طه حسين هدتني إلى حقائق أدبية وفلسفية

وخصومتي مع الأستاذ أحمد أمين كانت السبب في أبحاث جياد أفصحت فيها عن سرائر الأدب العربي

وخصومتي مع الأستاذ توفيق الحكيم كانت السبب في أن أنشيء مقالي عن « رجال الأدب ورجال القضاء »

وخصومتي مع الأستاذ ابراهيم المازني كانت الباعث لبعث مواهبي الشعرية

فما مصير خصومتي مع الأستاذ العقاد ؟

إن بوادرها لا تبشر بالخير ، فهل تقع معجزة تحولها إلى الاختصام حول حقائق تكون دساتير في فهم أصول الأدب والبيان ؟

أنا أنتظر أن نخوض في أحاديث تصل بنا إلى نفائس ، وأكره أن تكون المعارك الأدبية في مصر مقصورة على مجادلات ينفر منها الذوق في أكثر الأحايين

وإلى اللقاء على صفحات « الرسالة » الصديق

ضيوف القاهرة

كان من المألوف أن يصطاف المصريون في فلسطين أو سورية أو لبنان ، لينعموا بالرخاء الذي لا تعرفه مصايف الأسكندرية أو رأس البر أو بور سعيد ، فما تمتع بلدٌ قبل هذه الحرب بمثل الرخاء الذي كان يتمتع به أهل فلسطين ولبنان

واليوم نسمع أن تلك البلاد تعاني متاعب عنيفة من الغلاء ونرى بين أعيانها أفواجاً تزور القاهرة لتعيش في رفاهية بضعة أسابيع ، فما الذي نصنع في إكرام أولئك الضيوف ؟

يعزّ عليّ أن أعترف بأننا لم نتخذ خطة واضحة في استقبال من يزور مصر من أبناء الشرق العربي والإسلامي . وإلى وزير الشئون الاجتماعية أوجه هذا الحديث

شارع الشريف وغيط الشريف

في يناير سنة ١٩٣١ شكا إليّ السيو قوشيه مراسل «الأهرام» في باريس من أن جريدة الأهرام لا تدعوه إلى الإقامة في القاهرة شهراً أو شهرين من كل عام ، ليعرف الجو السياسي فيراعيه فيما يرسل من البرقيات

وفي أغسطس من سنة ١٩٤١ زرت مدينة المنصورة لأتحدث مع الأستاذ الزيات فيما يجب أن نراعيه من التوجيهات الأدبية والاجتماعية

وفي إحدى السهرات قال فلان : هل سمعتم باسم الشارع الجديد ؟

— وما اسم الشارع الجديد ؟

— شارع الشريف الرضي

فابتسم الأستاذ الزيات وقال : هذا من وحي الدكتور المبارك

وفي يناير من سنة ١٩٤٢ رفعت قضية شفعة على غيط يجاور أملاكي في سنتريس . ولم أكن أملك من ثمنه غير دنانير كسبتها من كتاب « عبقرية الشريف الرضي » ، وقد كسبت القضية وسميت الغيط « غيط الشريف »

أمر الأرواح عجب في عجب ، وما أعجب أمور الأرواح !